

المدرسة مختبر الثقافة الديمقراطية
-الفلسفة البراغماتية لجون ديوي أنموذجا-
بن ناصر حاجة¹

_1.hadja.bennaceur@univ-tiaret.dz

تاريخ الإرسال: 2025/04/15؛ تاريخ القبول: 2025/04/26

School Democratic Culture Lab
-Pragmatic philosophy of John Dewey Andrama.□
A. hadja bennaceur

Abstract: The need of all peoples for an educational project that undertakes the task of preparing the phased generation for a young generation aware of the developments of life and the continuous changes of what is happening in the world seems to be an urgent matter and a strategic goal, which is achieved through educational construction, given that all the diseases and scourges of education ultimately come from one source, which is failure. Educational policies, therefore, the aim of education was to prepare a good person who is able to perform various jobs, and develop him to serve the political system, work with its principles and comply with its laws based on the consolidation of the belief of the child and the citizen in a political culture that serves the general plan determined by the state.

The pragmatic American philosopher John Dewey considered the school as a laboratory for change and the embodiment of democracy, not only as a political organization, but also as a culture practiced by the public and citizens thanks to educational upbringing through programs and study materials that he referred to in his book Schools of the Future, and through the Progressive Education Project. The school to

bring about political change, or rather, any kind of education for any kind of democracy? Will the school succeed in the task of changing school education?

Keywords: education, school, democratic culture, progressive education, didactic media..

الملخص:

تبدوا حاجة الشعوب قاطبة إلى مشروع تربوي يأخذ على عاتقه مهمة الإعداد المحلي لجيل ناشئ واع بمستجدات الحياة والتغيرات المستمرة لما يجري في العالم، أمرا ملحا وهدفا استراتيجيا، يتم بلوغه بالبناء التربوي، على اعتبار أن مجمل أمراض التعليم وآفاته متأتية في نهاية المطاف من مصدر واحد وهو فشل السياسات التربوية، لذلك كان الهدف من التربية هو إعداد إنسانا صالحا قادرا على تأدية وظائف مختلفة، وتنميته لخدمة النظام السياسي، والعمل بمبادئه والإمتثال لقوانينه انطلاقا من ترسيخ الاعتقاد لدى الطفل والمواطن بثقافة سياسية تخدم المخطط العام الذي تحدده الدولة.

ولقد اعتبر الفيلسوف الأمريكي البرغماتي جون ديوي المدرسة كمختبر للتغير ولتجسيد الديمقراطية، لا باعتبارها تنظيم سياسي فحسب بل كثقافة يمارسها الجمهور والمواطنون بفضل التنشئة التربوية من خلال برامج ومواد دراسية أشار إليها في كتابه مدارس المستقبل، ومن خلال مشروع التربية التقدمية، فماهي الآليات والوسائط الديدانكتيكية التي تستخدمها المدرسة لإحداث التغير السياسي أو بالأحرى أي نوع من

التربية لأي نوع من الديمقراطية؟، وهل ستنجح المدرسة في مهمة التغيير
بالتربية المدرسية؟.

الكلمات المفتاحية: التربية، المدرسة، الثقافة الديمقراطية، التربية التقدمية،
الوسائط الديدانكتيكية.

مقدمة:

اهتم جون ديوي الفيلسوف الأمريكي بفلسفة التربية واعتنى
بإرساء دعائم نظام تربوي عملي تطبيقي تجاوز من خلاله النظريات
التربوية السابقة، بربطه بمتطلبات الحياة وتقلبات العالم المعيش ومسيرة
أحداثه، بهدف توجيه المواطن نحو السلوك السديد إستنادا إلى مجموعة من
المبادئ والقيم الأخلاقية، تحددها في نظر ديوي المدرسة باعتبارها القلب
الناض للصلح المجتمعات، ولعل الفكرة الرئيسة التي عمل ديوي على
تطويرها والدفاع عنها هي ربط المدرسة بالمجتمع وهو ما يعكسه عنوان
كتابته المدرسة والمجتمع، إذ يوحي هذا العنوان بوجود علاقة بين فضائين
أحدهما يمثل الجزء الممثل بالمدرسة والثاني الكل وهو المجتمع، غير أن ما
أراد ديوي توضيحه في ثنايا هذا الكتاب ومن خلال مرامي مشروعه
التربوي، هو أن المدرسة ليست مؤسسة مصغرة بقدر ما هي مجتمع ثان
يتقاسم مع المجتمع كحيز تتواجد فيه هذه الأخيرة مصلحة مشتركة
ويمحلان على عاتقهما مهمة توجيه وإرشاد تطلعات الفرد واهتماماته
المشتركة حتى يسهمان في تكوينه كذات ناضجة لها القدرة على الفعل
والتغيير.

ويهدف ديوي من خلال مشروعه التربوي إلى عقد الصلة بين التربية والديمقراطية، ولعل ما حمّله إلى هذا الاهتمام هو انحصار الديمقراطية كنظام في المجال السياسي فقط من دون أن تأخذ في حساباتها المجال الاجتماعي وما ينجر منه من خلافات اجتماعية وأزمات قيمية أخلاقية لذلك أعاد النظر في الديمقراطية الليبرالية، وسعى إلى إصلاح هذا النظام من أجل اعتماده كنظام اجتماعي وثقافي وسياسي بناء على أن الديمقراطية ثقافة تمارس قبل أن تكون نظاما سياسيا يتبع من قبل الدولة، وتحقيق هذا المبتغى أي إرساء ثقافة ديمقراطية يستدعي العمل على إيجاد إستراتيجية محكمة لتجسيده وتشكل المدرسة كمختبر للأفكار الديمقراطية رهان تطبيقه، إلى جانب التربية كمخبر للفيلسوف يتم فيه صناعة الأفكار الديمقراطية، فما هو المنهج التربوي الكفيل بتحقيق هذا المحتوى؟، وما هي الآليات المقترحة من أجل إنجاح هذا المشروع؟، وهل بإمكان إصلاح النظام الديمقراطي عن طريق التربية ليصبح نظاما له القدرة على إستيعاب واستقطاب جميع مجالات الحياة؟، وما وظيفة المدرسة إزاء هذا النظام؟.

المنابع الفكرية لفلسفة ديوي التربوية وموقفه من الفلسفات التقليدية:

جون ديوي (1859-1952) Jhon Dewi فيلسوف معاصر من أصل أمريكي ذو نزعة برغماتية، وتتمثل برغماتيته في إخضاع البحث إلى مجموعة من العمليات والإجراءات لاختبار صحته من خطأ وضرورة إخضاع نتيجة البحث إلى إتفاق وتأييد مجموعة من الباحثين والعلماء حولها (فالصدق مرتبط بالقدرة على الفعل وتحقيق النتائج المتوقعة منه،

والصادق ما فعل وحقق النتائج وسيكون الصدق صفة النتائج المحققة).
(الشمري وآخرون، 2013: 350).

وقد اصطلح على تسمية براغماتية ديوي بالبرغماتية الأداتية التي تتخذ من المعرفة كأداة العمل ولكل نشاط إنساني، فالمعرفة إذن هي أداة لاختبار الأفعال متأثراً بأستاذه شارل سندرس بيرس وبأفكار داروين حول التطور فمثلما تكيفت عنق الزرافة مع الوضع الطبيعي للحفاظ على بقائها واستمرارها، يتعين على العقل أن يكون فعالاً ووظيفياً لتجريب الأبحاث واختبارها.

فنظرية التطور الداروينية ساهمت في نظر ديوي في إحداث نقلة نوعية من مجال تفاعل الكائن مع طبيعته إلى تفاعل الإنسان مع مجتمعه وتجديد معارفه، وصقل سلوكياته عن طريق الخبرة، وللأفكار صلة بالبيئة الاجتماعية للأفراد، وأن أساس التفكير هو العمل ومعالجة مختلف المشاكل التي يطرحها الواقع، كون الإنسان لا يفكر إلا إذا اعترضت طريقه مجموعة من المشاكل وجب حلها (علينا أن نفكر بالخبرة إلى حد ما، كعلاقة تفاعلية بين الكائن الحي وبيئته). (ميساك، 2020: 221).

هذا إلى جانب النظرية السلوكية لجون واطسون (1858-1978) التي إهتمت بدراسة سلوكيات الإنسان على أساس فيزيولوجي والتي هي نتيجة حتمية وإستجابة لزومية لنوعية المنبهات المثيرة للسلوك كمنعكسات شرطية، كذلك إذا أردنا أن نربي الطفل على الديمقراطية ينبغي غرس القيم والمبادئ والثقافة الديمقراطية فيه لإشراكه في بناء المجتمع. (فالطفل

حسب ديوي الذي ينشأ في بيئة موسيقية تحركه الدوافع والمواهب الموسيقية أكثر من غيرها فالبينة الاجتماعية ...، تدفعهم إلى ألوان من الأعمال تذكى فيهم ضروبا من البواعث...، لها أهدافها ونتائجها المعينة). (ديوي، دس: 17)، كما لا يمكننا التغافل عن التأثير البليغ للحركة النفسية الحديثة في التربية الممثلة ب: فريديريك فروبل (1782-1852)، على ديوي في رباطه بين الخبرة والحياة الاجتماعية لتطوير قدرات الطفل ونموه بالوظيفة الاجتماعية للديمقراطية مستفيدا من مؤلف فرويل (تربية الإنسان) في مقارباته حول دراسة المدرسة التقدمية في تنمية خبرات الطفل وميولاته مؤكدا وموجها تركيزه على خبرات الطفل ما قبل المدرسة من خلال رياض الأطفال والتي أعاد تشكيلها وفقا لمعايير تنسجم مع المجتمع الأمريكي، فتوجيه الطفل وتهيئته ثقافيا وإجتماعيا، يشترط مناهج وبرامج تهتم بالجانب النفسي للمتمدرس بالدرجة الأولى لتحويل دوافعه ورغباته إلى سلوك فاعل وفعال في المجتمع والمدرسة.

وتمثل المدرسة الجهاز التنفيذي لأفكار ديوي التربوية، إذ أخرج التربية من فضاء الأسرة إلى فضاء المجتمع لإعداد الطفل لحياة اجتماعية أفضل (وما لا ريب فيه أن الأفراد يختلفون اختلافا كبيرا في مواهبهم الفطرية...)، ومشكلة التربية من هذا الجانب هي الكشف عن ماهية هذا الرصيد الفطري من القوة ثم إستعماله بطريقة...، كما لو كنا سننظمه في أشكال من العمل محددة محفوظة □ ونعني بها: العادات. (ديوي، دس: 55)، فالتربية التقدمية هي استجابة لليومي وللمعيش من منطلق

اعتبارات الطفل وقدراته ودوافعه الفردية والجماعية والإنسانية بعيدا عن أشكال العنف والتسلط والخضوع والامتثال.

وإذا كانت غاية التربية التقدمية إرساء ثقافة ديمقراطية حية في سلوك الفرد، وتحقيق مبادئ ديمقراطية من حرية ومساواة فإن ذلك مرهون بالمدرسة ووظيفتها الاجتماعية في تحقيق مجتمع يفتح فيه الفرد على الجماعة بتنمية شاملة بدءا من الطفولة بحيث يكون الطفل غاية التربية المدرسية، وتمثل الخبرة الاجتماعية أساس التربية الخلاقة المبدعة عبر وسائل ومناهج تربوية، وطرق ديداكتيكية لبث روح الديمقراطية والمواطنة والقيم الأخلاقية بكل وعن طريق تعامل والعمل بكل حرية وعدالة ومساواة.

ويمكن رد شمولية فكر ديوي وواقعيته إلى تأثره بالفيلسوف الوضعي أوجيست كونت من خلال محاولته تطبيق آليات وخطوات المنهج العلمي ليس على الظواهر المادية فحسب، بل تعداها إلى الظواهر الإنسانية ونادى ديوي بضرورة عقد صلة بين العلم والفلسفة والمجتمع وما يحمله من تغيرات ويحويه من ظروف اجتماعية متباينة، ورفض بالمقابل الاعتقاد بصرامة المنهج التجريبي وجعله في منأى عن التقلبات المختلفة التي يمر بها المجتمع، ويعيب على النظريات العلمية التقليدية والفلسفات الكلاسيكية بحثها عن الثابت ويظهر ذلك جليا في نقده للفلسفات اليونانية الكبرى على رأسها فلسفة أفلاطون وأرسطو، ورغم أن إسحاق نيوتن وغاليلي قدموا للمعرفة الكثير واستطاعوا أن يبرهنوا على العديد من النظريات

العلمية كالجاذبية، ودوران الأرض على التوالي فإن كل هذه النظريات والفلسفات عموما أرادت أن تثبت اللاتغير في رحم التغير والنسبية، إن الفلسفة البرغمية حسب ديوي هي عملية تجديد في البناء تأخذ في حساباتها لا البدايات فحسب وإنما النتائج أيضا، كون ما يصلح لعصر ما قد لا يصلح لعصر آخر، وما ينطبق على الوضع الحالي لا ينطبق على الأوضاع المستقبلية، والخبرة هي ما تمكن المرء من اختبار الوسائل وأن تعقيدات الحياة اليومية تزيد من تعقيدات الوسائل (ولهذا يدعونا ديوي أن نعمل على تجديد النظريات والمعتقدات مع السعي لتجديدها وصقلها وتنظيفها باستمرار لتصير نافعة وناجحة، وإلا أصبحت وسيلة هدم وتدمير للفكر والفرد والمجتمع). (بوسكاك وآخرون، 2016: 180).

ساهمت هاته النظرة الفوسيفسائية في إضفاء الطابع العلمي على فلسفة ديوي وجعلها أكثر إنسانية وملائمة للحياة والواقع التجريبي ولم يحصر فلسفته هاته على الجانب العلمي بل دعا إلى تربية عملية، وجعل الهدف من التربية هو هدف سياسي اجتماعي، الغاية منه تطبيق النظام الديمقراطي وتجسدت هذه الفكرة من خلال برامج ومواد دراسية في كتابه مدارس مستقبل الذي ألفه مع إيفلين ديوي، واهتمام ديوي بالتربية يشبه إلى حد ما التربية عند أفلاطون في محاوره الجمهورية (اعتقادا منه أن الضامن الأكبر لبقاء الدولة وقوتها، هو تربية أفرادها وتوجيههم تبعا لمخطط عام يحدد لكل منهم الدور الذي يقوم به وفقا لاستعداداته الذاتية لصالح الجمهورية). (ديوي، 1946: 06).

ولقد تأثر ديوي في فلسفته التربوية بالفيلسوف الإنجليزي جون لوك في ربطه بين الديمقراطية والتربية، ومن غير الممكن تأسيس فلسفة تربوية في دولة ديكتاتورية وحكم استبدادي، إلى جانب هؤلاء الفلاسفة، فإن لخصوصية المجتمع الأمريكي وما يحمله من تنوع ثقافي، وتعدد عقائدي، وسعيه إلى ممارسة الديمقراطية كنظام أثرت إلى حد كبير على فلسفة ديوي التربوية ومن ثم آمن بدور هذه الأخيرة في خدمة الواقع والتنقيب على مشكلاته، (ومجمل القول إن الحياة الاجتماعية لا توجب لبقائها وجود التعليم والتعلم، فحسب بل إن مجرد عملية العيش المشترك تؤدي إلى التربية إذ توسع خبرة الفرد وتستثير خياله وتنميته، وتجعله مسؤولاً عن ضبط أقواله وأفكاره، وتوضيحها). (بخضرة وآخرون، 2015: 186-187)، فما تمنحه حياة التعدد والتنوع تعجز عن منحه حياة العزلة والإنطواء للفرد إذ تحجب عنه فرصة التفكير والتعلم من الخبرة.

الفلسفة ومهمة التأسيس التربوي لدى ديوي

المتتبع للمسار التاريخي لعلاقة الفلسفة بالتربية يبرز امتداد جذور هذه العلاقة لحقب زمنية غابرة، إذ اهتم الفلاسفة الأوائل بالتربية وعلى رأسهم سقراط أب الفلسفة اليونانية وأفلاطون وابن خلدون مروراً بجون جان جاك روسو، وكانط، وصولاً إلى ديوي وعبرت المؤلفات العديدة لهذا الفيلسوف عن اهتماماته العميقة بالتربية، منها الديمقراطية والتربية، المدرسة والمجتمع، مدارس المستقبل، وغيرها.

ولقد جعل ديوي من الفلسفة الأداة والوسيلة لخدمة المجتمع وحل مشاكله، وفك أزماته رافضا بذلك الفلسفات التقليدية والقضايا الميتافيزيقية التي انصرفت للفكر من أجل الفكر، فمهمة الفلسفة حسب ديوي مثلما أوضحها في كتابه تجديد في الفلسفة هي حث الإنسان على تبصر ما يحمله المجتمع ومجالات الحياة المختلفة من تعقيدات وتناقضات، وما ألحقه التقدم الحاصل في العلوم والتقنية من تشيء وشورور، فعلى الفلسفة إذن أن تعقد صلة وثيقة بالواقع، وأن تسير مستجداته، ولن تتحقق هذه المهام وتنجح في تحقيق ما تصبوا إليه إلا بفعل الاهتمام بمسألة المنهج أولا، وبالتربية ثانيا، لكون التربية هي الوسيلة والأداة التي يستخدمها الفيلسوف لإثبات مدى نجاحها في مساندة متطلبات المجتمع، وقدرتها على تغييره بهدف تنمية النشاط العملي وتثمين كل فاعلية إنسانية هادفة تصل إلى حد خلق إنسان ومواطن ذو مسؤولية، له القدرة على المشاركة في التنمية المستدامة للمجتمع والحياة البشرية.

فالتربية إذا عملية حياتية هي أداة لفهم اليومي والواقع المعاش. وليست عملية لإعداد المستقبل تهتم بما هو عملي ومهني أكثر مما هو نظري، (ويمكن تحقيق هذا الهدف بأن نجعل من التربية عملية اجتماعية ولا يتأتى هذا إلا إذا أصبحت المدارس جزءا وقطاعا حقيقيا من الحياة الناشطة الإيجابية، لا أن نترك هذه المدارس تسلك طريقها وفق مشيئتها وأغراضها، فتغلق أبوابها وتوصدها في وجه كل المؤثرات الخارجية، وتعزل نفسها عما عاداها). (ديوي، دس: 215)، فديوي من خلال

مشروعه التربوي، يركز على إمكانات الفعل وسعى إلى تجديد دور الفلسفة وتحديد مستقبلها زمان ومكانا، على أساس أن مستقبل الفلسفة هو مستقبل الإنسانية جمعاء إن الغاية من عقد الصلة بين الفلسفة والتربية، واعتبار هذه الأخيرة أداة لخدمة المجتمع، هو تحقيق نتائج عملية ملموسة في الواقع المعيش من شأنها أن تسهم في صياغة قوانين ومبادئ تحول الحاضر من صيغة الجمود إلى واقع ومستقبل أكثر ثراء، ناظرا إلى الفلسفة والتربية نظرة أدائية ثورية غايتها تمكين الإنسان من مجابهة معضلات الحياة (لقد بلغ إدراك ديوي لما بين الفلسفة والتربية من علاقة جعله يعتبر الفلسفة نظرية للتربية، أو بعبارة أخرى الفلسفة هي الإطار النظري. للتربية، وعلى هذا التربية والفلسفة مظهران لشيء واحد). (جديدي، 2003: 227).

ويتفق كل من جون ديوي وريتشارد رورتي حول موقفهما من الفلسفة فكل فلسفة لا يحياها الإنسان ولا يفعلها في واقعه الاجتماعي ويستنجد بها في فك أزمات الراهن تفقد كل مصداقية وقيمة، فكلاهما ينظر للفلسفة نظرة تجديدية عملية تخلصها من طابعها الأكاديمي ومن صبغتها التقليدية مع فارق هو أن ديوي يولي الأهمية لدور الفلسفة في إرساء دعائم نظام ديمقراطي، بينما يولي رورتي الأسبقية للديمقراطية على الفلسفة ويصبح الفيلسوف شاهدا أو واصفا لنموذج سياسي لا فاعلا فيه، من باب أن الديمقراطية هي التي تهئ الشروط اللائقة لتحقيق التقدم والنجاح.

ولهذا يمكن القول أن رغبة جون ديوي في تحديد الفلسفة وإعادة بنائها هو تحديدا للتربية أيضا، ذلك أن الفلسفات التقليدية منذ عهد اليونان، ومنذ أفلاطون، انصرفت للبحث عن اليقين، وعن الثبات في ظل عالم متغير، وأن العديد من الفلاسفة لا يزالون تحت تأثير هذا الاتجاه، والنظرة المثالية للعالم، بعيدة كل البعد عن واقع الحياة، وتقلبات اليومي والإنسان في نظر ديوي مدعوا لاستخدام أساليب جديدة تتوافق مع عالم يتسم بالتغير والتحول، وأن يسهم في تكوين وبناء هذا العالم غير المكتمل، وذلك بأفعال التربية في جميع مجالات الحياة وربطها بالمجتمع لتنوط فلسفة التربية عند ديوي بمهمة متعددة المشارب ومتنوعة في توجهاتها، ومختلفة في طرائقها وأساليبها، بهدف التغير الفعلي والعملي للواقع مزاجا بين النظرية والتطبيق، فلا معنى لنظرية فلسفية أو علمية أو فنية، ما لم تحقق وتنتج آثارا نفعية.

ويقسم ديوي التربية إلى قسمين تربية نفسية ترتبط بميول الفرد ورغباته، وتهتم بالجانب النفسي للمتعلم وتربية اجتماعية من شأنها إعداد أفراد لهم القابلية على المشاركة في كل نشاط اجتماعي، والقدرة على الاندماج في هذا الكل بوصفه جزء لا يتجزأ منه، (فالتربية المقصودة تقوم على العلم بنفسية الطفل من جهة، ومطالب المجتمع من جهة أخرى فالتربية ثمرة علميتين هامتين علم النفس وعلم الاجتماع. (خضر، 2010: 228).

ولا غرابة في دعوة ديوي إلى ربط المدرسة بالمجتمع لربط الجزء بالكل، ولأن المدرسة ما هي إلا صورة مصغرة للمجتمع، معتبرا المدرسة مختبر تجريبيا تعتمد أساسا على دور الخبرة، وتعبر عن فلسفته التجريبية، وعن منهجه الأداتي، لأن التربية تجربة يعيشها ويمارسها كل من المتعلم والمعلم على حد سواء، وهي الأداة التي بفضلها أثبت ديوي صحة أفكاره الفلسفية والتربوية على حد سواء، فما هي المهام المخولة للمدرسة والتربية التقدمية؟ وأي منهج يليق بها؟.

المدرسة مختبر

تعتبر المدرسة الوسط والحيز الذي يقاس فيه نجاعة طرق التعليم وصلاحيات البرامج التعليمية، ولقد استطاع ديوي أن يجعل من المدرسة مختبرا تجريبيا يستطيع بواسطتها المعلم والمتعلم خوض تجاربهم التعليمية والدراسية، وكذا مواقف الخاصة تجاه الحياة والمجتمع ما دامت المدرسة مجتمعا مصغرا، فإنها تعمل على إعداد الطفل وتنمية قدراته وكفاءاته ومواهبه بما تتماشى وعادات وتقاليد وقوانين مجتمع، فالمدرسة ملزمة على مساهمة مستجدات المجتمع، وأن تتولى مهمة القيادة التربوية والإصلاح، والتغيير الاجتماعي، وأن تحمل على عاتقها إعداد المواطن الذي يريده المجتمع، ولما كانت الأسرة عاجزة عن تحقيق ذلك فإن المدرسة هي الحاضنة الرسمية لهذه المهام، وهي من سيتولى شعلة التغيير بالتربية، (فالمدرسة في هذا الحال لا تقف عن إمداد المجتمع بأفراد عاديين شبيهين كل الشبه بأفراد المجتمع خارجها، بل عليها أن تحسن النوع الذي تخرجه وأن تكون عاملا

مصلحا، وأن تحل هي مشكلة الهداية والقيادة العالمية، والإصلاح الاجتماعي، بما يزوده به طلابها من المعارف والأخلاق والمبادئ). (عبد العزيز، عبد المجيد، 1976: 75).

لقد أخضع ديوي أفكاره للتجربة وللتحقيق كأداة ووسيلة لإعادة بناء الأفكار وتدقيقها بفضل مشروع المدرسة المختبر، (وكانت قد تأسست سنة 1836 مع وصول جون ديوي إلى جامعة شيكاغو التي كانت تابعة له). (جيرارد، 2009: 285)، ويعترف ديوي في مقدمة مؤلفه المدرسة والمجتمع أن نجاح مدرسته هو نتاج عمل مشترك ساهم فيه الكثير من بينهم زوجته كمدرسة ذكية وحكمة وجدية معلمي المدرسة في نقل خطة المدرسة إلى واقع ملموس لا يكاد ينفك عن حياتهم اليومية.

وتبرز أهمية المدرسة المختبر أو ما يسميها أيضا بالتربية التقدمية أو التربية الحديثة في كونها تنوب عن الأسرة الخلية الأولى في المجتمع في تربية الطفل وأن الإصلاح الاجتماعي عن طريق التربية أجدر نفعاً من الإصلاح الذي يتولاه المجتمع عن طريق الثواب والعقاب، فالمدرسة تخلق روح المحبة والتضامن وتقوي الشعور بالمسؤولية تجاه الآخر وتعزز إلتئام الفرد وولائه لمجتمعه، (وعندما تقدم المدرسة كل طفل إلى عضوية المجتمع وتدرجه داخل مجتمع صغير من هذا النوع فتجعله يشرب روح الخدمة وتجهزه بأدوات التوجيه الذاتي الفعال يكون لنا حينئذ أعمق وأحسن ضمان لمجتمع أكبر ذي قيمة وحسن وانسجام. (ديوي، دس:

50)، ويمكن القول أن المدرسة في نظر ديوي بيئة مصطنعة قادرة على تعويض بيئة الطفل الطبيعية والمتمثلة في الأسرة وبإمكانها مقاسمة هذه الأخيرة أدوارها التربوية الأولى.

ومن المهام التي تتولى المدرسة القيام بها، حسب ديوي مثل ما ورد في كتابه المدرسة والمجتمع، وكذا التربية الديمقراطية هي:

- أن تكون المدرسة صورة مصغرة للمجتمع، تمرن الطفل وتدرجه على مجموعة من القيم والمبادئ التي لها صلة وثيقة بالعصر، ولهذا السبب ربط بين المدرسة والمجتمع، وبين التربية واليومي ونجاح المدرسة مرهون بتحقيق الانسجام والترابط بين الفرد ومجتمعه، بين الطفل ومجالات الحياة المختلفة، وأن تلف المدرسة فيما يروي ديوي (كله ناشئة عن عزل المدرسة عن هذه الأوجه) (ديوي، دس: 76)، بحيث يجد الطفل نفسه عاجز عن استخدام واستثمار ما تعلمه من برامج ونظم مدرسية في واقعه اليومي، فإنعزال المدرسة عن الحياة يؤدي حتما إلى تشكيل هوة بين الطفل ومحيطه الاجتماعي.

- أن تعمل المدرسة على تعليم الطفل مختلف المهن والحرف اليدوية ما يؤهله للاندماج في المجتمع لاستثمار مواهبه وفق النظام الصناعي التجاري الذي تتبناه الدولة، ومن أجل تحقيق التكامل بين ما هو علمي وفني وعملي، ولهذا السبب يجب أن يواكب تطور مناهج التعليم وتحسين البرامج التعليمية التطور والتقدم الحاصل في المجالين الاقتصادي وحتى السياسي، ولقد أوضح ديوي في كتابه مدارس المستقبل كل من. تجارب

مدينة جاري وشيكاغو في هذا الميدان، وليس المهم تدريب الطفل على حرفة وصناعة بقدر ما يهم زرع الشعور بضرورة العمل وقيمه في إفادة الفرد والمجتمع، (ومن ثم نرى أن الهدف التربوي من تدريب الأطفال بحيث يستطيعون الاستفادة من قدراتهم الخاصة ومن مجتمعهم الذي يعيشون فيه إلى أقصى درجة ممكنة). (ديوي، دس: 285-286).

- من مهام المدرسة تنمية القدرات العقلية للطفل وخبراته النفسية باختيار المعلم لعدد من المواضيع المتنوعة، والأساليب الفعالة المناسبة للمراحل العمرية للطفل وللاتجاهات السائدة في المجتمع، وهنا لابد من العودة إلى المدرسة المختبر كحقل لتجريب هذه الاقتراحات واستخدامها للوصول إلى نتائج بديلة وجديدة وذات قيمة، فلقد أولى ديوي أهمية للفن واللهو واللعب، وكل هذا يتوقف على عمل المعلم ودوره البناء في تربية الطفل في صورة أعلى مما كان يرمي إليه طفل نفسه، (لذا يجب أن يعنى المربي أثناء العملية التربوية برعاية القدرات الكامنة في طبيعة الطفل وتشيطها وإخراجها من حالة القوة والكمون إلى حالة الفعل... وتدريب الطفل على التفكير بذكاء). (حنيفي، 2013: 36).

- ومن وظائف المدرسة أيضا أن تكون بمثابة مصفاة تعمل على تنقية التراث والأحكام المسبقة، وما خلفه الماضي من شوائب الخرافة ومن أوهام الزيف والتظليل، وبهذا يضمن المجتمع نقل موارده ومقوماته للأجيال اللاحقة، نقلا سليما وسديدا فتتخلص بذلك من شتى العيوب والقيم المتحجرة، فترفع من مبادئ المجتمع وتصلق ثقافته، وتهذب أفرادها،

وتطهرهم من كل سلوك بغض، وتصرف خصيص، وفي هذا الصدد يربط ديوي بين العادة والقيم الأخلاقية، فالفضائل والبرذائل ليست بالممتلكات الفردية والذاتية بل هي أنواع من التكيف بين الفرد وبيئته، والعادة هي الوسيلة لتحقيق أهدافنا السامية وقيمنا الأخلاقية (فالعادة تكون رغباتنا الفعالة، وتمدنا بقدراتنا العاملة وتتحكم في أفكارنا، وتعبر عن نفسها في العمل كأساليب مؤثرة سائدة). (ديوي، 1963: 02).

وعلى هذا الأساس تتميز التربية عند ديوي عن سابقتها في المدارس التقليدية والتي اهتمت بالحشو المعرفي، واعتبرت الطفل مستقبل سلمي منفعل، غير فعال، فتصوره للتربية تصورا أداتيا ينقل الطفل والمتمدرس عموما من حيز الإمكان إلى ما يتوجب أن يكون، ومن العلم إلى العمل ومن الانفعال إلى الفعالية، وعلى هذه الأساس يضع ديوي للتربية المدرسية مبدأ هام وهو الخبرة، فهي قاعدة كل عمل تربوي، وهي أساس الفلسفة البراغماتية برمتها، ونجاح العملية التربوية مرهون باستثمار خبرات الطفل والانتفاع بها في المدرسة وفي الحياة، وباكتساب خبرات جديدة تعاونية تبادلية لتكون قوام التعايش بين الأفراد وانتقالهم إلى أفضل وضع ممكن، وتتيح للمتعلم أن يعمل بطريقة جماعية يتقاسم فيها الأدوار حسب قدرات وخبرات كل فرد، و(تعد الخبرة عاملا محوريا وشرطا لنجاح أي عملية تربوية وتعليمية إذ تجعل المتعلم وجها لوجه مع ما يواجه ليستخلص منه ما يساعده على التكيف لاحقا). (خالدي، 2017: 263).

ولتقدير قيمة الخبرات والتمييز بين الخبرات النافعة مع الخبرات الضارة والتربوية من اللاتربوية يرتكز ديوي على مبدئين هامين وهما التفاعل والاستمرار.

- مبدأ التفاعل: وهو المبدأ الذي يعبر عن العلاقة التي يقيمها الفرد مع مجتمعه والمبنية أساسا على عملية التأثير والتأثر المتبادل بينهما، وحسب ديوي فإن هذا المبدأ يعبر عنه من خلال التفاعل الموجود بين الطفل والمدرسة، فمن جهة ينبغي الاهتمام بخبرات الطفل وما يستلزمه من نمو وتركيز الجهود عليه بصفته محور العملية التعليمية، ومن جهة أخرى لا ينبغي إغفال دور المدرسة وما تستوجه من برامج تعليمية وتعلمية ووسائل ومعلمين من أجل إنجاح العملية التربوية، (أما الخبرة من حيث هي محاولة فإنها تنطوي على تغيير ولكن هذا التغيير يكون تحول عديم المعنى ما لم يرتبط ارتباطا شعوريا بسبل النتائج التي تصدر عنه). (ديوي، 1946: 144).

- مبدأ الاستمرار: وهو ثاني مبدأ تقوم عليه الخبرة، ويقصد به استمرار الخبرات وتداولها، فكل خبرة تنتج أخرى، ولا توجد بصفة منعزلة عنها وتؤثر فيها، وهذا يعني أن مبدأ الاستمرار يعبر عن وجود علاقة بين خبرة سابقة وخبرات لاحقة تنتج عنها، وليست كل الخبرات نافعة، فمنها ما يساعد الطفل على النمو، ومنها ما يعيق هذا الأخير (وبالنظر إلى أن الخبرة قوة متحركة ليست متوقفة عن النمو، وحتى تصبح خبرة ناضجة،

فإن واجب المربي العمل على البلوغ بخبرة التلميذ إلى تمام نضجها).
(جديدي، 2003: 243).

الديمقراطية والتربية:

لا ينظر ديوي إلى النظام الديمقراطي على أنه نظام حكم بل كثقافة وكنمط حياة ويربط بين الديمقراطية والتربية ربطا محكما، واهتمام ديوي بالتربية على الديمقراطية يشبه إلى حد كبير اهتمام الفيلسوف اليوناني أفلاطون، فالأسرة في نظره عاجزة عن إعداد جيل ناشئ لذلك تسند مهمة التربية وتلقى على عاتق الدولة لاعداده، اعتقادا منه أن بقاء الدولة واستمراريتها يتوقف على تربية مواطنيها، وفقا لما ترسمه وتحده من مخططات، ومع ذلك يشير ديوي إلى حدود المشروع الأفلاطوني في جعله الديمقراطية وسيلة للمحافظة على النموذج الاجتماعي، وحصره لكفاءات وقدرات الإنسان في ثلاثة كفاءات يقابلها ثلاثة مستويات وطبقات، في حين أن التربية في نظر ديوي تغير المجتمع وتغير هي الأخرى.

فحسب جون ديوي ينبغي على التربية أن تسعى إلى القضاء وتقليص الهوة بين طبقات مجتمع وجعلهم متساويين في الحقوق والحظوظ الاجتماعي، وأن تعمل السلطات على تعديل أساليب التعليم مناهج الدراسة، ما يوافق ويحقق انسجام وتفاعل الفرد مع مجتمعه ومحيطه، ومن جهة ثانية ينبغي أن تركز التربية مبدأ التعاون والتآخي والتواصل بين أفراد الإنسانية جمعاء وهي مظاهر المجتمع الحديث والتربية الحديثة التي دعا إليها ديوي في كتابه التربية والديمقراطية، (ولما كانت التربية عملية

اجتماعية، ولما كان هناك أنواع كثيرة من المجتمعات، فإن المعيار الذي به ننقد، ونشيد صرح كل بناء في التربية يفرض وجود مثال اجتماعي معين). (ديوي، 1946: 103).

ولقياس قيمة أي شكل من أشكال الحياة الاجتماعية اعتمد ديوي نقطتين هامتين وهما اشتراك أفراد الجماعة في مصالحها، والثانية الحرية والكمال الذين تتبادل بهما الجماعة العمل مع غيرها من الجماعات فالتربية ترمي إلى منح الأفراد قسط أوفر من الحرية قصد تمكينهم من استثمار واستعمال خبراتهم من جهة، واكتساب خبرات وتجارب من شأنها تعديل سلوكهم، ومن ثم الاستقلال تدريجيا عن دور المربي وإشرافه والاستعانة بنفسه كذات فاعلة في تشكيل ذاته وتقويم سلوكه من أجل تحقيق الذاتية، وقد نادى من قبل ديوي جون جاك روسو بهذا المبدأ الذي اعتبر أن التربية لا بد أن تكون سلبية من جهة المربي، فهو الموجه فقط (ليس التعليم في تصور روسو هو الغاية، بل الطفل وطفولته هم الهدف النهائي للتربية، وليس المعلم الحقيقي هو ذلك الراشد الكهل العالم والعارف). (حجلأوي، 2013: 34).

إن حرص ديوي على ضرورة الحرية للتربية يرجع إلى ما توفره الأولى للثانية في منح المتعلم، ومساعدته على تفجير طاقاته وقدراته للوصول به إلى أعلى درجة الكمال الإنساني، ومن ثم نقول فلا بد من التربية بالديمقراطية، من أجل ديمقراطية التربية.

لكن ثمة أزمات تطال التطبيق الديمقراطي في المجتمع منها ثقافة الإنغلاق ووجود كيانات لا عقلانية داخل المجتمع الواحد (فالبشر غير عقلانيين بالقدر الذي وصفهم به ديوي). (ميساك، 2020: 261)، هذا ما أوضحه راندولف بورن Randolph Bourne كاتب أمريكي (1886-1918) هذا علاوة على أزمة الديمقراطية بأمريكا، والتي كان سببها الإفتقار إلى الوعي والممارسات الإنسانية، منها موقف الأمريكيون من الهنود الحمر، التمييز العنصري بين السود والبيض والتعصب العقائدي ومشكلة الأقليات العرقية.

وإذا كان ديوي جعل من المدرسة مرتعا للتربية الديمقراطية فإن الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس يمثل الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت اعتبر من التواصل وإيتيقا المناقشة أساس الديمقراطية المسماة الديمقراطية التشاورية، على أن يتم التواصل في فضاء عمومي تشارك فيه جميع الفاعلة في النقاش والمحقة للإجماع، فمن فضاء المدرسة لديوي إلى فضاء المناقشة لهابرماس على أن يكون الهدف والمبتغى واحد، وهو تحقيق وإرساء دعائم الديمقراطية، سواء كثقافة وكوعي أو كنظام تخضع له جميعا الذوات.

لقد استطاع ديوي أن يربط بين التربية والفلسفة ربطا محكما وبيّن ما للمدرسة من دور في تربية الطفل، وجعله غاية بتنمية قدراته واستغلال مواهبه وتحويله من القوة إلى الفعل، فهو محور العملية التربوية لذلك ثار على التربية التقليدية وارتكز على التربية التقدمية باعتبارها مهمة المدرسة في تنمية قدرات الطفل المختلفة، وحل تعقيدات الحياة لتحقيق التوازن بين

الفرد وبيئته، وجعل المدرسة صورة مصغرة للمجتمع يستمد منها المتعلم القيم الأخلاقية والمثل العليا والجمالية التي تهذب سلوكه وتوجه تصرفاته وقراراته.

خاتمة

وكمخرج لما سبق ذكره حول المدرسة، مختبر الثقافة الديمقراطية فإن التربية الحديثة التي تبناها ديوي سعت إلى فتح نوافذ المدرسة على الحياة وتمكين الفرد من بناء ذاته وشخصيته واستعمال قدراته واستعداداته وفق المجتمع الذي ينتمي إليه، انطلاقا من عامل الخبرة ونجاح المدرسة من وجهة نظر ديوي يرتبط بالمعلم والمتعلم على حد سواء وعلى بيئة ثقافية ديمقراطية تهيئها هذه المدرسة وينميها المجتمع وتزكيها الدولة، فحينما نريد أن نربي الأطفال، لا بد من تهيئة البيئة الكفيلة بتحقيق الأهداف التربوية، وبالتالي قدم ديوي من خلال المدرسة المختبر النموذج التربوي القادر على التجسيد على أرض الواقع، والذي يتوافق مع المجتمع الأمريكي، ويبقى الحديث عن علاقة التربية والمدرسة بالثقافة الديمقراطية موضوع له شجون إذا ما حاولنا إسقاط التجربة على أرضيات مختلفة.

المراجع:

جميلة حنفي (2013). دور المدرسة في بناء الديمقراطية لدى جون ديوي. مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية. قسم الآداب والفلسفة-ع10.

- جون ديوي (1946). الديمقراطية والتربية. مقدمة في فلسفة التربية. تر: زكرياء ميخائيل. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- جون ديوي (1963). الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني. تر: محمد لبيب التجيحي. مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.
- جون ديوي (دس). المبادئ الأخلاقية في التربية. تر: عبد الفتاح السيد هلال؛ وأحمد فؤاد الأهواني. الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- جون ديوي (دس). المدرسة والمجتمع. تر: أحمد حسن الرحيم. منشورات دار مكتبة الحياة. لبنان. بيروت.
- جون ديوي (دس). مدارس المستقبل. تر: عبد الفتاح الميناوي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. مصر.
- جيرالد ديلوداد (2009). الفلسفة الأمريكية. تر: جورج كتورة، إلهام الشعراني. (ط1). مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. لبنان.
- خالد الوليد (2017). التربية من المثال إلى الواقع جون ديوي أنموذجا. مجلة موتون. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الدكتور مولاي طاهر سعيدة. المجلد الثامن. العدد الرابع.
- سناء خضرا (2010). الخبرة الجمالية عند جون ديوي. (ط1). دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر. الإسكندرية. مصر.
- صالح عبد العزيز. عبد العزيز عبد المجيد (1976). التربية وطرق التدريس. ج1. (ط12). دار المعارف. مصر.

- عبد الغاني بوسكاك وآخرون (2016). البرغماتية عند ديوي. ضمن كتاب الفلسفات الأنجلو□أمريكية. من تفكيك بالواقع إلى إعادة بنائه. (ط1). منشورات الاختلاف. الجزائر.
- لطفي حجلوي (2013). التربية الديمقراطية من مفهوم الحداثة إلى استحقاق للرابع العربي. (ط1). ابن نديم للنشر والتوزيع. الجزائر.
- محمد جديدي (2003). فلسفة الخبرة. جون ديوي أنموذجا. (ط1). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. الجزائر.
- مونيس بخضرة وآخرون (2015). جون ديوي. ضمن كتاب معجم الفلاسفة الأمريكيين من البراغماتيين إلى ما بعد الحداثيين. (ط1). منشورات الاختلاف. الجزائر.
- ميساك شريل (2020). البراغماتيون الأمريكيون. تر: جمال شرف. (ط1). المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. بيروت. لبنان.